متى نطوّر التفكيرين النقدي والابتكاري إن لم يكن في الصغر؟

محمد زيدان

أستاذ بقسم علوم التربية، المدرسة العليا للأساتذة، القبة

كنت منذ سنوات خلت أرافق أستاذًا أُقدّره، يتمتع بقدر لا بأس به من العلم والثقافة الأدبية، ولا أعرف كيف تطرقنا إلى موضوع نسبية آينشتاين (Einstein)، فأبديت رأيي فيها بجرأة لم يعهدها صاحبنا. نهرني هذا الأستاذ وكأني ارتكبت جرما خطيرا، بل وكأني كفرت بالله العزيز الحكيم سبحانه وتعالى. تعجبت من ردة فعله وغيرته الشديدة على رجل لا يعرفه شخصيا، وقد لا يفهم نسبيته لأنه لم يكن أستاذا في الفيزياء أصلا. وأذكر أنه نبهني أنّ ذاك أمر رباني يرزق به الله من يشاء من عباده، وكأن آينشتاين أحد أنبياء بني إسرائيل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أو كأنه رسول معصوم من الخطأ. إني لم أطعن في شخصية آينشتاين ولا في شرفه، ولم أسئ إليه أبدا ولا لأحد من أفراد عائلته ولا لقومه. إن أفكاره ونظريته، ومهما كان شأنها، من حقي أن أبدي رأيي فيها، وإن اتصفت بالبساطة والسذاجة بسبب أني قد لا أفقه شيئا في العلوم الفيزيائية.

كلنا بشر، ولنا أعين نبصر بها، وأدمغتنا تزن جميعها في حدود كيلوغراما ونصف الكيلوغرام، ولنا آذان نسمع بها؛ فلماذا يقرأون ولا نقرأ، ويعقلون ولا نعقل، ويتفكرون ولا نتفكر، ويبتكرون ولا نبتكر؟ أين هو الخلل يا ترى؟ لماذا يظهر فيهم العباقرة الخالدون على شاكلة آينشتاين وفاينمان (Feynman)؟ لماذا يظهر عباقرة كثيرون في الأثنية الواحدة ولا يظهرون في أمة بعشرات ومئات الملايين؟ هذا أمر عجيب يتطلب منا إعمال الفكر. هل قدّر لنا، ونحن خير أمة أخرجت للناس، الجهل والفقر والعري والذل والهوان وتحقير الذات؟ لماذا نسحق بصيرتنا ونعمي أبصارنا عن رؤية الأشياء كما هي؟

1. أسطورة تجاوُز العالَم المتقدم لَنا بمئات السنين

قد يقول لك قائل إنهم في العالَم المتقدِّم تجاوزونا بمئات السنين، وأن لا سبيل إلى اللحاق بهم ومنافستهم، ولا بد من فترة زمنية طويلة جدا لبلوغ ما بلغوه وحققوه. وقد يزعمون أنه لا بد من هضم ما جاء به العالم من علم وتكنولوجيا، مما يستغرق وقتا طويلا جدا. هذا كشعب وأمة. أمّا نحن كأفراد، المطلوب منا استيعاب الفيزياء، كل الفيزياء، ليحق لنا إبداء رأينا المتواضع في نظرية آينشتاين أو نسبيته على سبيل المثال، ومن ثمة الرد عليه ودحض نظريته إن كانت قابلة للدحض، وهي بالتأكيد الحقيقة المطلقة وغير قابلة للنقض أحب من أحب وكره من كره. إنها خرافة الفجوة العلمية والتكنولوجية الفاصلة بيننا وبينهم.

2. أسطورة أنّ الشباب ليس لهم المؤهلات الكافية لنقد النظريات العلمية

قد يتبادر إلى الذهن بأنّ المؤهل منا لتوجيه النقد لنظرية النسبية أو أية نظرية أخرى سواء كانت في الفيزياء أو في غير الفيزياء، يجب أن يكون قد بلغ من العمر عتيا واشتعل رأسه شيبا وكاد يغادر هذه الدنيا غير آسف عليها. لكن بالمقابل تمكن آينشتاين وهو في العشرينات من عمره أن يسدد اللكمات القاضية إلى نيوتن (Newton) العملاق، شيخ الفيزيائيين الغربيين، ويوقعه أرضا كما يدّعون. ألم يخرج عن الطوق وهو الشاب الضائع في مكتب الاختراعات، فيتحدى وبكل جرأة العملاق نيوتن؟ ألم يقل على غير المعهود متحدّيا الحس العام والفطرة السليمة أن جمع السرعات لا يصح مع الضوء؟

إذا كان آينشتاين، الشاب، يتحدى نيوتن، فمن أين تسنى له الاطلاع على ما هب ودب من أمور الفيزياء؟ تطبيقات نظرية نيوتن في الواقع لا حدود لها؛ ما من ميدان تكنولوجي إلا وتجد فيه فيزياء نيوتن ولحد الساعة حاضرة بقوة. ومع كل هذا يقول آينشتاين وبكل جرأة، لا لنيوتن، نظريتي في النسبية الخاصة والعامة أشمل وأدق من نظريتك، وأنا الأعظم والأحكم. لماذا لا ينبهر آينشتاين مثلما ننبهر نحن؟ لماذا لا تُشلّ ملكة النقد لديه؟ لماذا أطلق العنان لخياله؟ ألا يوجد فينا عباقرة يبدون رأيهم وبكل حرية وشجاعة فيما يجري في العالم؟ إننا الأجدر والأقدر على قول "لا" لنيوتن ولآينشتاين وغيرهما، لأننا أصحاب تاريخ وحضارة ضاربة جذورها في الماضي السحيق، ثم لأننا نختلف عنهم وبالتالي ننظر الآن إلى الواقع والعالم من موقعنا الخاص ومن خلفيتنا الحضارية المتميزة. إننا مؤهلون للإتيان بالجديد الخارق في العلوم والتكنولوجيا.

3. صناعة العلماء في الغرب وإحاطة بعضهم بهالة إعلامية

لماذا يخرج العباقرة منهم، بما فيهم آينشتاين وحيد زمانه وكل الأزمنة والدهور، ولا يخرج منا العباقرة؟ هل نحن متخلفون لأسباب بيولوجية خارجة عن إرادتنا؟ هل يكمن سر عقمنا الحضاري في منظومتنا التربوية؟

يبدو لنا أن هناك طريقتان لصناعة العباقرة في الغرب. أولا، إنهم يشجعون أبناءهم على الإتيان بالجديد ويدعمون المتفوقين منهم. بل إن هناك لوبيات تملك المال الوفير والجاه، فتدعمهم وتفتح لهم كل النوافذ والأبواب للتفوق والإبداع الفعلي. وثانيا، إنهم قد يصنعون من الحبّة قبة، وينصبون على رأس كل علم عبقريا وهميا أو زمرة من العباقرة الوهميين، يحيطونه أو يحيطونهم بهالة إعلامية زائفة. فنحن، مثلا، لا نشك في ذكاء آينشتاين، لكنه مع الأسف مضخم إعلاميا إلى درجة غير معقولة.

إننا لا نحلم بأن ندعم عباقرتنا بالمال كما يدعمون، ونشجعهم كما يشجعون، ونحن بطبيعة الحال ضد التضخيم والتفخيم كما يفعلون. إننا نريد فقط الكف عن إيذائهم وإرهابهم ووأدهم بالرتابة والنمطية الصفية في المدرسة، وإتاحة الفرصة لهم لإبداء آرائهم ومواقفهم الأصيلة مما يتلقونه من معلومات. إنّ المدرسة الجزائرية ومعها الجامعة الجزائرية أشبه بمكان لغسل الأدمغة بأدوات مستوردة من الخارج باسم التدريس بالأهداف والمقاربة بالكفاءات وباسم الحداثة والتقدم. البعض في بلادنا متخصص في تحقير كل ما هو جميل ورائع وجديد لأنه فقط منا وإلينا.

4. انبهار وعمى معرفي واستكبار

وتنطلي اللعبة علينا، ونتحول إلى عمي صم بكم لا نفقه شيئا في الألاعيب. نستقبل ما يأتينا من العالم الخارجي وبالتحديد الغرب، وكأنه لم يترك الأول للآخر شيئا ليقوله. والأول الأعلم والأكمل هو الغرب بعلمائه ومنظريه وكأنه الحقيقة المطلقة. يظهر فينا دراويش من نوع جديد لم نألفه، كل منهم غارق في وهم أنه أفضل من قومه، وأنه اكتسب الحقيقة المطلقة من السادة هناك في الغرب. وهو في واقع الأمر أشبه بالحيوان المربوط بإحكام في حبل مثبت في وتد أو في غصن شجرة، لا يتحرك إلا ضمن المساحة المسموح بها، ولا يبصر خارجها أنّ هناك كونا شاسعا فيه النجوم والكواكب والمجرات وقد توجد كائنات أضخم، تكون فيها تجمعات الأكوان أشبه بالجسيمات الأولية في عالمنا.

5. التنظير في العلوم والفنون قد يتطلب الورقة والقلم فقط

قد نختلق الأعذار للفيزيائي والكيميائي في بلادنا. فمن أين يأتي الفيزيائي أو الكيميائي الجزائري بالمركبات الفضائية وبمسرعات الجسيمات ومفاعلات الاندماج النووي وآلة زاي Z machine الخارقة لتوليد حرارة قد تتجاوز 3 مليار درجة حرارية، بغض النظر عن الوحدة المستعملة؟ لكن الإتيان بالجديد لا يتطلب في كل الأحوال تجهيزات وأموال طائلة وتظافر جهود دول قوية. ماذا عن أمور الإبداع التي لا تتطلب سوى الورقة والقلم لا غير؟ أليس من

الأفضل لشعبنا أن يجمع شتاتنا، نحن الجامعيين والمثقفين عموما، في شاحنات ويقذف بنا من أعلى قمة في بلادنا أو يرمي بنا في البحر لتأكلنا الحيتان الجائعة؟ لماذا لا نكسر زنزانات النظريات ونمرح خارجها، ونبني قصورا نظرية لا زنزانات أو غرفا ضيقة؟

6. المنظومة التربوية وتحريك التفكيرين النقدي والابتكاري لدى الشباب

لنرجع إلى أستاذنا القدير الذي نهرني عندما أبديت له رأيي في نسبية آينشتاين، ولنتساءل، كيف يتعامل مع الطلبة في الجامعة؟ ألا يمكن أن يخرج منهم الأستاذ البارز والعبقري المتميز؟ لماذا لا تكون دروسنا مناسبات عزيزة لتحرير العقول وإيقاظها من سباتها العميق؟ لماذا لا نحرك في طلبتنا شهية البحث والتساؤل وإطلاق العنان للخيال؟ ما الذي يقيد حركتنا؟

إذا لم يتعلم طلبتنا فنّ طرح الأسئلة والتفكيرين النقدي والابتكاري في عز الشباب وفي مدرستنا فمتى يتعلمون؟ هل عندما تضمر أدمغتهم وتتكلس عظامهم وتنحني أظهرهم المثقلة بالهموم ويعانون من اضطراب ضغط الدم والسكري في عروقهم وأجسادهم؟ وهل يرقون تفكيرهم النقدي والابتكاري في الفراغ وليس في محاولتهم نقد نظريات وقوانين علمية سائدة أو بائدة؟ لقد لاحظنا في أحدث كتب علم نفس النمو وعلم النفس التربوي الأنجلو سكسونية التركيز بالدرجة الأولى على التفكيرين النقدي والابتكاري، فلماذا على الأقل لا نفعل مثلما يفعلون؟

7. ماذا عن المقاربة بالكفاءات في منظومتنا التربوية؟

وماذا عن المقاربة بالكفاءات؟ هل جاءت بنتيجة ما؟ وماذا قدّم الخبير كزافي روجيرز (Xavier Roegiers) لمظلومتنا التربوية أو لمنظومتنا التعليمية؟ نحن لا نشك في كفاءته، مع بعض التحفظ على كل ما يأتي من الدول الناطقة بالفرنسية وتلك التي تسير في ركبها؛ لأنها دخلت عصر انحطاط شبيه بعصر الانحطاط الذي مرت ولا تزال تمر به أمتنا رغم المحاولات المستمرة للنهوض الفاشلة.

لقد أصبح الناطق بالفرنسية يتكلم كثيرا باستعمال لغة فيها أصناف من الحذلقة والتصنع والغموض. ولو كانت لغتهم العربية لملأوا كتبهم العلمية بالمحسنات البديعية من سجع وجناس وطباق وبالغوا فيها حد التخمة. المثير حقا أن الفرنسي يميل إلى تعقيد لغة الرياضيات والعلوم الفيزيائية، لا بل يكاد يصيغ العلوم الفيزيائية بلغة رياضية بورباكية (Bourbaki) معقدة، أعقد بدرجات من لغة كتاب "فصوص الحكم" للصوفي العربي الأندلسي ابن عربي. ولتجدن طلبتنا المساكين الذين لم يتصفحوا كتب السوفييت والأنكلوساكسونيين الفيزيائية، ولو بالفرنسية المروضة ترويضا ويتذوقوا حلاوة العلوم ومذاقها الرائع، يحفظون معادلات صماء مستغلقة، وصيغا رياضية ما أتى الله بها من سلطان، كما يحفظ الجاهل الطلاسم والتعاويذ الغريبة ظنا منه أنها تطرد الجن والشياطين والعقارب والكوليرا والطاعون.

8. لغة التدريس بالكفاءات في بلادنا عنيفة وثقيلة على اللسان

إن الأستاذ الجزائري المحاصر في لقمة عيشه ووقته، والمبتلى باكتظاظ الأقسام وعزوف التلاميذ والطلبة عن الدراسة وشعورهم بعدم جدواها وخاصة الذكور منهم، ليس له الوقت الكافي ولا الاهتمام بلغة المقاربة بالكفاءات الثقيلة. ما معنى كلمة "تجنيد" (mobilisation) في لغة الكفاءات؟ وماذا تعني أيضا كلمة "الموارد " (les ressources)؟ هل في لغة القابسي وابن خلدون والعلموي وابن جماعة وابن سينا والجاحظ، وغيرهم من المربين العرب والمسلمين ما يشبه هذه اللغة العنيفة؟ ألا يذكرنا هذا بتجنيد القوى الاستعمارية الجيوش للاستيلاء على موارد الشعوب المغلوب على أمرها؟ هل يريدون منا أن نُدخل الأطفال في حروب مع محيطهم ومع أنفسهم؟

كنا أيام زمان في ستينات وسبعينات القرن الماضي نرفض الجلوس بجوار التلميذ الكسول لكيلا تنتقل إلينا عدوى الكسل، وكنا نتنافس على قراءة الكتب ونحلم بغزو الفضاء وتطوير الصواريخ لحماية بلادنا من الغزاة. أما الآن وفي مدرسة قزافييه روجييرز وَغي لو بوترف (Guy Le Boterf) وَأندريه جيوردان (André Giordan) وَغي بروسو (Guy Brousseau) وَميشيل أرتيغ (Michèle Artigue) وكل المنخرطين في "أيديولوجيا" التدريس بالكفاءات، صرنا نسمع وصف التلاميذ لزملائهم الذكور المتفوقين بأنهم "ليسوا رجالا". وما هي معايير الرجولة في عصرنا؟ هل هي تعاطي المخدرات في زوايا الحي المظلمة؟ هل هي التسكع في الشوارع بلا هدف والنوم طوال النهار والسهر ليلا، واعتماد الرجل المتطفل على تقاعد الأم أو على أجر الزوجة أو الأخت؟ هل لهذا علاقة بالمدرسة الجزائرية؟ هل يرجع إلى مقاربات التدريس المنتهجة في منظومتنا التربوية؟ ألم نأخذ بمقاربة التدريس بالأهداف ثم بمقاربة التدريس بالكفاءات من أجل إعداد مواطن صالح لا طالح؟ أين يكمن الخلل؟ أليس في التقليد الأعمى للغير بحجة أنهم متقدمون؟ أليست مقاربات التدريس أيديولوجيات غربية مدسوسة وليست تقنيات يمكن تطبيقها في كل الثقافات والمجتمعات؟

9. التدريس بالكفاءات عصي عن التطبيق في منظومتنا التربوية

إننا نراهن على أنه حتى المتخصص في المقاربة بالكفاءات لا يستطيع تطبيقها في الميدان. لا بل نقول ونزعم ونؤكد: إننا لو لم نُخضع أساتذتنا لأي ترويض "ديداكتيكي" ولا كتبنا المدرسة لأي ترقيع أو دس "ديداكتيكي" لكان الأمر أحسن والمأساة أهون وألين. والأكيد أن تلامذة المدارس ما كان ليخطر ببالهم وصف زملائهم المجتهدين بأنهم ليسوا رجالا.

المفيد أنّ التدريس بالكفاءات حسب معلوماتنا المتواضعة انطلق في أمريكا من المدرسة السلوكية، ثم رحل إلى البنائية ثم إلى البنائية الثقافية الاجتماعية. وكان أول ظهور له في عالم الشغل، لينتقل إلى التكوين المهني، ليعمم بعدها.[1] ولم نسمع أنه جرى تبني النظرية الدينامية لحد الساعة. وما وصلت إليه علوم الأعصاب من جديد غائب عنها بالكمال والتمام. ولم أقرأ أن أحد علماء الأعصاب استعمل مفردات "سحرية أشبه بالحروز والتعاويذ كالتجنيد والموارد". لا يوجد، في اعتقادنا ألذ وأمتع من ترديد مفردات "ديداكتيكية" مثل "كيف تكون وكيف تفعل" savoir être et savoir faire، إنها الأنفع لمنظومتنا من "حرز مرجانة" الذي يقي حامله من حسد الحساد ومكر الماكرين وأذى الجن والشياطين.

10. الدعوة إلى التحرر الفكري

إننا لا ندعو إلى العودة إلى الكتاتيب أو إلى مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كما قد يحلو للسيدة مليكة قريفو في كتابها "المدرسة الجزائرية من ابن باديس إلى بافلوف"، ولا إلى عصر ابن سحنون والقابسي ولا ابن خلدون أو ابن سينا. إننا ندعو فقط إلى استقراء واقعنا ببرودة أعصاب وبدون ترديد مفردات مثل "تجنيد" و"الموارد" والوضعية المشكل" والعقد الديكتاتيكي" وما شابهها من مصطلحات تدل على الغطرسة والتعالي والغلو في قهر وإرهاب البسطاء، مع دراسة تجارب الأمم والشعوب، وقبلها توظيف، وباقتدار وثقة، قدراتنا الابتكارية آخر ما توصلت إليه علوم زماننا، وما نتوقعه في المستقبلين القريب والبعيد.

11. لماذا التطبيل للبنائية وللمقاربة بالكفاءات؟

وبالمناسبة، لماذا التطبيل لبنائية بياجيه (Piaget) وللبنائية الثقافية الاجتماعية لفيغوتسكي (Vygotski)؟ ألا يوجد فيهما ما يدعو إلى الريبة؟ إننا ورثنا عن أجدادنا فن التعليم من الأمم الأخرى. الكلمة تشير إلى البناء، والبناء رصّ اللبنات أو الأحجار وربطها فيما بينها بالإسمنت أو الطين مثلا لإقامة مبنى ما، ولتكن أهرامات الجيزة في مصر أو ناطحات السحاب في اليمن السعيد في غابر الأزمنة والأحقاب، أو على الأقل قبر الرومية في الجزائر. ومعنى ذلك أننا

نكون بهذا جعلنا من أبنائنا بفضل البنائية والمقاربة بالكفاءات بنائين مهرة، لأفكارهم وتصوراتهم بطريقتهم الخاصة وفق إمكانياتهم ومعلوماتهم السابقة وحالتهم الصحية وما إلى ذلك. هل علم الأعصاب يؤكد من بعيد أو قريب أن الأطفال أو المتعلمين يبنون أفكارهم، كل بطريقته الخاصة؟ ألا توجد نظريات أخرى ووجهات نظر مختلفة أجدى لنا وأقرب إلى واقعنا وهويتنا الوطنية؟ ألا يمكن ابتكار نظريات أو بالأحرى مقاربات بديلة تستوعب تميزنا واختلافنا عن الآخرين؟ هل نحن محكوم علينا باستيراد الأفكار وحتى تذوقنا وانطباعاتنا عن الأشياء وعن العالم من حولنا؟ ألم يوجه لو بوترف النقد للتدريس بالكفاءات في زمانه وهو أحد منظريها الكبار؟ ألم يدعو إلى إعادة التفكير فيها؟ [2] ألم يوجه البياجيون الجدد أو المحدثون رغم تأثرهم بمعلمهم جان بياجيه النقد لنظريته؟ لماذا لا نبتكر نحن الجديد مثلما يبتكرون؟ هل وظيفتنا ابتلاع كل ما يروج بلا روية أو تمعن أو إحكام للعقل والمنطق؟ هل البنائية وغيرها من النظريات السائدة حاليا الممكن الوحيد؟

12. ترديد المصطلحات بلا روية لن يخرج منظومتنا التربوية من محنتها

لا ننسى أيضا الكلمة السحرية المفتاحية لكل ما استغلق من العلوم والفنون، إنها بالتأكيد "الموقف المشكل" situation-problème الخفيف على اللسان الثقيل في الميزان، وما أدراكم ما الموقف-المشكل؟ إنه البلسم الشافي والكافي لمأساتنا التعليمية التعلمية، أو "الديداكتية" كما يدّعون. ما أكثر مآسينا حين تعدّها. إنّ بعض قومنا وأهلنا مولعون بتهديد الناس بالجحيم الذي ينتظر الجميع، ولا يذكرون إلا قليلا الجنات التي تجري من تحتها الأنهار والحور العين والنمارق المصفوفة وما لا نستطيع تصوره وتصويره ولو بلغة الرياضيات المجردة التي تتحدى الخيال.

وأشبّه بهؤلاء من يتجرأ على إلقاء أطفالنا في مواقف ومشكلات لا حدود لها يسمونها بكل حذلقة وتجبر وغطرسة "المواقف- المشاكل"، إنه وبحق الإرهاب "الديداكتيكي" في حق الأجيال. عندما يقول الجزائري أو العربي عموما إنه يمر بمشكل، تفهم من كلامه أنه يمر بمحنة أو ورطة. والمحن تعني التوتر والرعب والترقب، ألا يعني هذا توريط الطفل أو المتعلم بشكل عام في مشاكل عقيمة وتدمير قدراته الابتكارية؟ إن الغاية من التدريس بالكفاءات توفير اليد العاملة الكفؤة للشركات في المجتمعات الغربية، لا إسعاد الناس وترقيتهم وازدهارهم والحفاظ على إنسانيتهم. هل القصد من التدريس بالكفاءات في بلادنا إعداد أبنائنا لمهن محكوم عليها بالانقراض في المستقبل إن لم تكن قد انقرضت بالفعل؟

13. طريقة التدريس بالمغامرات

لماذا لا نستلهم تاريخنا العامر بالمغامرات والرحلات منذ العصر الفينيقي وما قبل العصر الفينيقي؟ لماذا لا ننظر إلى المدرسة على أنها مكان وزمان للمغامرات اللطيفة والمشوقة، وأن هناك مسائل لا مشاكل، وخيالا وحرية تفكير وإبداعا، لا خنوعا واتباعا؟ إن الإنسان كائن مغامر، ولادة الطفل مغامرة، محاولة الرضع الحبو والوقوف والانتقال من مكان إلى آخر مغامرات، الحياة كلها مغامرات. إذن لماذا لا تكون مدارسنا عالما للمغامرات اللطيفة والمثيرة، يتعلم فيها التلميذ ما لم يكن يعلم؟ إن الكلام الفضفاض، القادم إلينا من باريس أو من أوروبا، لا يمر ولن يخدع من قرّر التحرر من عقدة ابتلاع كل ما يأتي من وراء البحار والمحيطات باسم الحداثة والحضارة والتقدم، ومن التقليد الأعمى لمن يعتقد البعض أنه الغالب ونحن المغلوبون. لقد حان وقت تهشيم وتحطيم الأواني "الديداكتيكية على رؤوس منتحليها وأصحابها لتتناثر في الهواء في صورة غبار ودمار.

14. الدعوة للتحرر الفكري لا تعني التقليل من أهمية ما قدمه الآخرون

إننا نقدّر عاليا العلامة جان بياجيه الذي أفنى حياته المديدة في دراسة الطفل وخدمته، إنه عبقرية متميزة ولا شك قدمت للبشرية الكثير. إنه يتميز بنظرة ثاقبة وثقافة علمية وفلسفية واسعة وتجربة عميقة ومتميزة. يجب أن

نعترف بهذا، مع ملاحظة أنّ الاعتراف بالجميل لا يعني الانبطاح وابتلاع أفكاره بلا روية ولا روح نقدية. إننا نتتلمذ على بياجيه وحتى على قزافييه روجييرز وجيوردان. إننا نحترم العلماء وأستاذتنا الغربيين وغير الغربيين، ونشيد بما قدّموه للبشرية من علم وفن وتكنولوجيا. هذا لا يعني أبدا ابتلاع كل ما يقدم لنا ببلادة دون إبداء الرأي فيما قدموه. إننا نناقش أفكارهم ونظرياتهم كما لو كانت أفكار زملائنا بدون عقدة، وإذا ثبت لنا بأنها علم كاذب أو أنها خاطئة أو أن العصر تجاوزها، نبدي رأينا فيها بكل وضوح وشجاعة بلا تردد. إننا تلامذة من الطراز الذي يستطيع القول "لا" لأستاذه الذي يجله. وكذلك نفعل مع بياجيه وآينشتاين وغيرهم من العلماء والفلاسفة والفنانين. الممكن لا حدود له.

وبالمناسبة فإن عالمة النفس الكندية رونيه بالرجون (René Baillargeon) وآخرون وجهوا النقد لبياجيه، وانتهجوا طرقا بديلة لدراسة الطفل تختلف عن الطريقة التي استعملها بياجيه ووصلوا إلى اكتشاف أنّ الرضع، حتى وهم في الشهور الأولى من العمر، يمتلكون قدرات قد لا نتخيل وجودها إلا عند الكبار. ولا يغيب عن البال أنّ البياجيين الجدد أو المحدثين تبنوا بعض أفكاره ولكن ليس كل أفكاره.

إن علماء الأعصاب يتكلمون عن أن الخلايا العصبية تشكل شبكة في غاية التعقيد من الارتباطات فيما بينها، وأنها عند تعلم الجديد يجري تغيير كهربائي كيمائي وبنيوي في مخ الإنسان أو الحيوان. أين نحن من لغة "البنائية والتدريس بالكفاءات " فيما يجري في أدمغتنا أثناء التعلم؟

15. إننا استمرار لأجدادنا لا تكرارا لهم

إننا استمرار بالمعنى الرياضي لأجدادنا لا تكرارا لهم، أي ذاك الشبل من ذاك الأسد، وليس نسخة مشوهة للأجداد. وإنّ عيوننا منصبة على المستقبل بحلوه ومره وبتحدياته. إننا ندعو إلى إحداث قطيعة مع عصر الانحطاط، وإعلان المرحلة الثانية من حضارتنا الشامخة، حضارة المستقبل، أو ما يمكن تسميته بـ"الحضارة الرشيقة"، حضارة العمر المديد والصحة الدائمة، حضارة الأمل والعمل، لا حضارة اليأس والبؤس. إننا نوفق فيما بين إنسانية الإنسان وقيمه الخالدة والتقدم العلمي والتكنولوجي الخارق. إنها الحضارة الصديقة للبيئة ولإنسانية الإنسان. نحن أيضا من حقنا أن نحلم بزرع مآذننا وصوامعنا في السماوات العلا وجعل صوت الآذان يتردد في أرجاء المجرات البعيدة. وسوف يأتي اليوم الذي نقف فيه على قبر ذلك الجزائري اليائس من نهوض شعبنا وتحرره الفكري، الذي نعت -رحمه الله- مآذننا بالصواريخ التي لا تنطلقdes missiles qui ne décollent pas، ونذكّره بأن مآذننا مزروعة في أعماق الكون. وكل شيء ممكن.

المراجع

[1] برنارد ري وآخرون، ترجمة مصطفى بن حبيلس، المركز الوطني للوثائق التربوية، وزارة التربية الوطنية، الجزائر، 2015.

[2] Guy Le Boterf, Repenser la compétence, Éditions Eyrolles, Paris, 2008.